

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { أو لما أصابتكم مصيبة } وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم { قد أصبتم مثلها } يعني يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأسروا سبعين أسيرا { قلتم أنى هذا } أي من أين جرى علينا هذا { قل هو من عند أنفسكم } قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا قراد أبو نوح حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله { أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم } بأخذكم الفداء وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد أبو نوح بإسناده ولكن بأطول منه وهكذا قال الحسن البصري وقال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا إسماعيل ابن علي عن ابن عون عن محمد بن عبيد ح قال سنيده وهو حسين : وحدثني حجاج عن جرير عن محمد بن عبيدة عن علي بن أبي طالب قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : [يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول الله عشانرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس في ذلك ما نكره ؟ قال : فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر] وهكذا رواه النسائي والترمذي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ثم قال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة وروى أبو أسامة عن هشام نحوه وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا وقال محمد بن إسحاق و ابن جريج والربيع بن أنس والسدي { قل هو من عند أنفسكم } أي بسبب عصيانكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة { إن الله على كل شيء قدير } أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ثم قال تعالى : { وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله } أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة في ذلك { وليعلم المؤمنون } أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا { وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم }

يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة ولهذا قال { أو ادفعوا } قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي : يعني كثروا سواد المسلمين وقال الحسن بن صالح : ادفعوا بالدعاء وقال غيره : رابطوا فتعللوا قائلين { لو نعلم قتالا لاتبعناكم } قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ولكن لا تلقون قتالا قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس وقال : أطاعهم فخرج وعصاني وواحد ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله : { هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان } استدلوا به علة أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله : { هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان } ثم قال تعالى : { يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم } يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ومنه قولهم هذا { لو نعلم قتالا لاتبعناكم } فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة ولهذا قال تعالى : { والله أعلم بما يكتُمون } ثم قال تعالى : { الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا } أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل قال الله تعالى : { قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين } أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول